البلبل الصغير بين شوقى وخصومه

البلبل الصغير..

هكذا كانوا يسمونه منذ ثلاثين عامًا. وقد ظل خمس سنوات يحمل لقب بلبل.. ثم لقب بلبل صغير.. ثم لقب مطرب الملوك والأمراء.. وأخيرًا تنازل عن جميع هذه الألقاب، واحتفظ منها بلقب واحد، هو لقب الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب!

لمع نجم عبد الوهاب لأول مرة خلال الفترة بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٦، وكان شوقى قد سمعه. فأعجب به. وتحمس له، وأخذ يمهد له طريق المجد، فلا يمر يوم دون أن يطالع القراء صورته فى المجلات الفنية والأدبية مقترنة بكلمة. أو مقال، أو قصيدة فى التغنى بصوته، والإشادة بموسيقاه.

وكان شوقى يتراءى من خلال ما تكتبه الصحف عن عبد الوهاب. فقد أعجب بعبد الوهاب، وشغف بصوته حبًا. وكانت المعركة على أشدها بين شوقى وخصومه، وظهر

فى ذلك الحين كتاب الديوان للكاتبين الكبيرين العقاد والمازنى، وقد تناول هذا الكتاب شعر شوقى وشخصه، وتاريخه وحياته بالهجوم، والنقد، والتجريح. وانقسمت الصحف إلى معسكرين أحدهما يدافع عن شوقى ويهاجم العقاد والمازنى. والآخر يهاجم شوقى ويشيد بأدب العقاد والمازنى.

وكان أنصار شوقى يتعصبون له ضد خصومه، فكل ما يصدر عن خصومه سخيف حقير مبتذل سواء كان أدبًا، أو فنًا، أو مذهبًا سياسيًا. وكان خصومه يتعصبون ضده. فالحسن عنده قبيح عندهم. وما يراه صوابًا يرونه خطأ، والبلبل الصغير ليس إلا غرابًا!

وأخذ المازنى رحمه الله يهاجم عبد الوهاب فى جلساته الخاصة. ويقول إن صدر عبد الوهاب ضيق فهو لا يصلح أن يكون مغنيًا ولكن يصلح أن يكون مريضًا!

وكان المازنى لم يسمع عبد الوهاب بعد. ورأى أحد أصدقاء عبد الوهاب أن يحميه من هجوم المازنى عليه. فأقام حفلة فى داره دعا إليها المازنى والعقاد، وغنى عبد الوهاب فى الحفلة، وأبدى العقاد إعجابه بصوت عبد الوهاب، وقال إنه

لا عيب فيه إلا إعجاب شوقى به! ولما سئل عن رأيه فى عبد الوهاب قال: صوته قوى عذب جذاب، واستعداده الفنى عظيم، وقيل له هل تمنعك خصومتك لشوقى من أن تقول كلمة عن عبد الوهاب؟

فقال: كلا... وسأنظم قصيدة.

ونظم أبياتًا قال فيها:

إيه عبد الوهاب إنك شاد ... يطرب السمع والحجا والفؤادا
قد سمعناك ليلة فعلمنا ... كيف يهوى المعذبون السهادا
ونفينا الرقاد عنا لأنا ... قد حلمنا وما غشينا الرقادا
بارك الله فى حياتك للفن ... وأبقاك للمحبين زادا...

وكتب المازنى يصف الليلة التى غنى فيها عبد الوهاب فقال:

ومن أمتع ما مر بى فى هذه الحياة - التى لا أراها ممتعة ولا أحب أن تطول أو تتكرر - ليلة قضيتها بين شراب وسماع. فأما الشراب فلعل القارئ أدرى به! وأما السماع فقلّ من شجى به كما شجيت فى تلك الليلة.. إى والله وما زلت إلى الساعة - كلما خلوت بنفسى - أغمض عينى وأتسمع

وأحاول أن أبتعث ذلك الصوت البديع الذى هاجنى إلى ما بى كما لم يهجنى صوت سواه.. وقد أعجب لما يصب فى الأذن أين يذهب؟ وربما أثارنى هذا العجز عن إحياء صوت أكثر من تصوره فى ضمير الفؤاد، وقد أغالى فى إكبار هذه الثروة الصوتية وأتمنى لو رزقت شيئًا منها بكل مالى - لو أن لى شيئًا! - ثم أعود فأسخر من نفسى وأضحك من أمنية يستخفنى إلى إنشائها الطرب العارض.

ثم أسخر من سخرى وأقول لنفسى فى حدة: أولا يسر الإسكندر، وقيصر وسليمان أن ينزلوا لمثلى عن نصف ما أحرزوا من مجد لو أنه وسعنى أن أخول كلا منهم ليلة واحدة كهذه الليلة التى نعمت فيها!

كأنى لم أكن أسمع بل أسقى من رحيق الجنان. وكأنه لم يكن غناء مصوغًا من شجى القلوب بل من شعاع العقول..

وهكذا أمتعنا عبد الوهاب بغبطته فى ليلة كانت كلها سحرًا. وردنى بعدها بغير ذى أذن إلى كل نغمة من سواه.. وغير ذى صور إلا إلى فتنة من هوى فنه وشجاه.. ولولا أن يعد ذلك جحودًا ولؤمًا لتجاوزت عن ذكر اسمه فإنه أحلى

عندى وأوقع فى نفسى أن أجرد غناءه من صورته الآدمية على حسها النرجسى.. وأن أتصوره أبدًا هوى سابحًا، وروحًا هائمًا، وصوتًا صافيًا..

هذا بعض ما كتبه المازنى عن عبد الوهاب.

وقد فرح شوقى بما نظمه العقاد فى عبد الوهاب. وما كتبه المازنى عن عبد الوهاب.. واعتبر ذلك نصرًا شخصيًا له فقد كان حبه لعبد الوهاب عنيفًا جارفًا.

وكان عبد الوهاب عاطفة فى قلبه، وفكرة فى رأسه، ونورًا فى عينيه..

ولكن بعض أصدقاء شوقى أفهموه أن كتابة المازنى والعقاد عن عبد الوهاب ستجعله ينضم إليهما، وأفهموه أن بلبله الصغير قد بنى له عشًا فى قلب المازنى وقلب العقاد، واقتنع شوقى بذلك، وإذا به يسلط بعض الصحف على العقاد والمازنى لتجامعهما فى موضوع عبد الوهاب بالذات.. فكتب المرحوم حسين شفيق المصرى مقالا نقد فيه قصيدة العقاد وقال: هل أراد العقاد أن يمدح عبد الوهاب أو أراد أن يذمه؟ إنه يقول:

قد سمعناك ليلة فعلمنا كيف يهوى المعذبون السهادا

إذن لم تكن ليلة طرب بل كانت ليلة شقاء. إن عبدالوهاب لم يشج الشاعر، ولكن أشقاه، وسامه سوء العذاب!

وكيف يتفق هذا الشقاء والعذاب مع وصف الشاعر للمغنى بأنه أطرب السمع والحجا والفؤاد؟

وكتبت جريدة الكشكول كلمة تحت عنوان «هجاء فى مدح» قالت فيها:

- سأل أعرابى أحد المغنين ما الغناء؟ فأراد المغنى أن يرى الأعرابى كيف يكون الغناء فأخذ يتغنى بأبيات من الشعر، ويهتز، ويلق برأسه إلى الوراء. ثم يعتدل، ويتجعد وجهه، وتلعب عيناه. فقال له الأعرابى: «والله يا أخى ما يفعل بنفسه هكذا عاقل»!

وقد صدق. ولم نر من استملح هذه البشاعة من المغنين غير المازنى. فقد كتب فصلا عن المغنى النابغة محمد أفندى عبد الوهاب قال فيه إنه إذا تناول العود وأصلحه واستعد للضرب عليه يرفع رأسه حتى يكاد يمس به ظهر الكرسى. ويرسل طرفه إلى الفضاء.. وتلك أوصاف مفتراة ظنها المازنى

مما يحمد من المغنين فوصف بها عبد الوهاب.. وعبد الوهاب براء منها!

ثم قالت: «ولا نرى المازنى أخزاه الله يصف مغنيًا ولكنه وصف قردًا، وخيل إليه أنه يمدح وهو يهجو. ولا شأن لنا به.

فلينظر عبد الوهاب كيف جزاء من يطرب الحمق والجهال فلا يكافئونه إلا بإلحاقه بالقرود».

ولما ظهر الكشكول وفيه هذه الكلمة. أخذ شوقى يبدى إعجابه بالكاتب متسائلا: ياترى من يكون؟ إنه ليس أديبًا فقط. ولكنه أديب. وموسيقى ويفهم فى علم النفس. وكان يقول هذه الكلمات على مسمع من عبد الوهاب..

كان كاتب هذه الكلمة هو شوقى نفسه.. وقد نشرها غفلا من الإمضاء!

وقد لجح شوقى فى إقصاء عبد الوهاب عن العقاد والمازنى. وظل المازنى حانقًا على عبد الوهاب إلى قبيل وفاته بسنتين.

أما العقاد فقد نشر قصيدته عن عبد الوهاب فى البلاغ.

ولما تغير رأيه فى عبد الوهاب رفض تسجيل القصيدة فى أى ديوان من دواوين شعره!

شوقى وخصومه

فى عام ١٩٣٢، رحل شوقى من ضفة الحياة إلى الضفة الأخرى. ضفة الغيب والمجهول. وقد كان شوقى شديد الفزع من هذه الرحلة. يتمنى لو عرف ما وراءها كما لو كان شيئًا ماديًا يراه بعينه، ويلمسه بيده!

فهو يسأل إسماعيل صبرى عن الموت:

قل لى - بسابقة الوداد - أقاتل هو حين ينزل بالفتى أم شافى

ويقول فى رثائه لسعد زغلول:

«عرف الضفة إلا ما تلاها»!

وقد بلغ من فزع شوقى من الموت أنه كان يطمئن إلى الضجة ويجفل من الهدوء. يحب الشوارع الصاخبة، والأنوار الصاخبة، والأصوات الصاخبة. وكان حريصًا على إحاطة اسمه بالضجة والصخب. ضجة المدح، وصخب الثناء. وكان برغم

إيمانه بنفسه، وإدراكه لقيمته الفنية، يتألم من النقد، ويخاف من النقاد. ولقد هاجمه كثيرون من الأدباء والنقاد والكتاب والساسة هجومًا عنيفًا، فلم يرد عليهم بكلمة صريحة. واكتفى بغمزهم تلميحًا فى القصائد التى يقولها فى مناسبات لا تمت إلى موضوع نقده بصلة من الصلات..

وعندما أصدر الأستاذان العقاد والمازنى كتاب الديوان، وهجما فيه على شوقى هجومًا قويًا جارحًا، انبرى بعض الكتاب للرد عليهما. وكان رحمه الله يغذى هؤلاء الكتاب بآرائه وأفكاره، وكان حريصًا على ألا يظهر معهم فى مكان عام حتى لا يقال إنهم دافعوا عنه بإيعاز منه. وحدث فى ذلك الوقت أن وصلت إلى مصر أم المحسنين والدة الخديو السابق عباس الثانى ومعها رفات ابن عباس. وكان قد مات فى سويسرا. ودفن هناك. وبعد مرور بضع سنوات على موته سمح بنقل رفاته إلى مصر. وكان الملك فؤاد قد أوعز إلى حاشيته أن تعلن غضبه السامى.. على كل من يشترك فى استقبال أم المحسنين، أو تشييع جنازة حفيدها.

واستقبلها شوقى بقصيدة قال فيها:

أقبلى كالشمس لم تجعل لها موكبًا أو تتخذ من حاشرين

أقبلى فى بحرك الطامى إذا عبث السيف بموج المحتفين

وكان ينظم القصيدة وهو يرمق خصومه بعين تتميز غيظًا فقال :

لا ترومى غير شعرى موكبًا إن شعرى درجات الخالدين
آب من قيمتك الدهر كما رجع النقد من الشعر الرصين

وحدث أن تألفت لجنة للاحتفال بذكرى الكاتب الصحفى الوطنى أمين الرافعى، وأقيمت الحفلة فى مسرح الأوبرا. وكان أعضاء اللجنة مختصمين مع شوقى. فوضعوا قصيدته فى نهاية البرنامج، ولما وصلوا إليها اعتذر رئيس اللجنة عن عدم إلقائها، نظرًا إلى أن الوقت المحدد للاحتفال قد انتهى، فنشر شوقى قصيدته فى الصحف وأضاف إليها هذين البيتين :

إن يفت أمس منبر القول شعرى إن لى المنبر الذى لن يزولا
جل عن مشهد سوى الدهر يلقيه على الغابرين جيلا فجيلا

ولما مات حافظ إبراهيم. حزن شوقى وتوقع أن أجله قد دنا. فقد حدث عندما مات الإمام الشيخ محمد عبده، أن وقف على قبره سبعة من الشعراء وتنبأ أحد الأدباء بأن من وقفوا على القبر سيموتون بحسب ترتيب إلقائهم لقصائدهم..

وكان شوقى قد أرسل ثلاثة أبيات لتلقى على القبر. فكانت آخر أبيات أنشدت، وكان حافظ آخر من مات منهم. فلما سمع شوقى بوفاته جزع. أحس أن منيته قد دنت. وسافر إلى الإسكندرية. وتبارى الكتاب والشعراء فى رثاء حافظ. ولم يسمع أحد شيئًا عن مرثية شوقى. فحمل عليه بعض الكتاب واتهموه بالغدر وقلة الوفاء. وقالوا إنه يحسد حافظا حيًّا وميتًا. بعضهم كتب هذا الكلام. وبعضهم ردده فى مجالسه، وقد رد شوقى عليهم فى رثائه لحافظ فقال:

ووددت لو أنى فداك من الردى	والكاذبون المرجفون فدائى
من كل هدام ويبنى مجده	بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطموك وإنما بك حطموا	من ذا يحطم رفرف الجوزاء
انظر فأنت كأمس شأنك شامخ	فى الشرق واسمك أرفع الأسماء

ولقد مات شوقى فى نفس العام الذى مات فيه حافظ، وصحت نبوءة الأديب، وفقد الشعراء بحسب ترتيب إلقاء قصائدهم على قبر الإمام، وكان أولهم حفنى ناصف وآخرهم شوقى..

ياصديق العمر.. تمهل

إلى أين ياصديق عمرى، قف «تمهل» لا تسرع بخطاك إلى العالم الآخر. فأنا مازلت هنا، فى الدنيا التى عشناها معًا طفلين صغيرين، نسكن فى حارة واحدة، ولا نكاد نفترق إلا لحظات النوم، وأوقات الدراسة..

ودارت بنا الأيام، وافترقنا. سار فى طريق، وسرت فى طريق آخر، وكنا دائمًا على اتصال روحى وفكرى. كانت أفكارنا تتعارض أحيانًا، ولكن مشاعرنا ظلت كما هى. بريئة كالطفولة التى جمعتنا، حكيمة كالكهولة التى خطفه منها الموت، وتركنى وحدى أبكيه، دون جدوى!

فلن يعود يوسف حلمى إلى الحياة بعدما فارقها، ولو ذبحنا قلوبنا أسى عليه.

ولكن كم من يوم طواه الزمن وظل عالقًا بأذهاننا، نابضًا فى ذاكراتنا، لأن عظمته تتحدى الزمن والنسيان.

إن الأحياء كالأيام. إذا مضى يوم فلن يعود وإذا مات إنسان فلن نجده إلا إذا وصلنا نحن إليه..

وكم من أصدقاء فقدناهم، ومازلنا نعيش معهم بالذكرى والحسرة. ويوسف حلمى واحد من هؤلاء لا بالنسبة لى كصديق عرفته منذ سبعة وأربعين عامًا، ولكن بالنسبة إلى كثير ممن عرفوا يوسف صديقًا، ومناضلا وعبقريًا.

فيوسف حلمى المحامى الذى نعته الصحف، كان كاتبًا يعالج الموضوعات السياسية والفنية، وكان قصاصا أضاف إلى المكتبة العربية مجموعة من القصص الصغيرة أصدرها من نحو ثلاثين عامًا، وكان أول خريجى معهد التمثيل، وقد رأس جمعية أنصار السلام. وكان ينادى بالمبادئ الاشتراكية قبل قيام الثورة ولم تشغله المهام السياسية والاجتماعية التى اضطلع بها، عن الاهتمام بفن الغناء، فعمل على إنشاء جمعية أصدقاء سيد درويش، فقد كان مؤمنًا بأن هذا الفنان هو أول من استمد إلهامه من الشعب، من طبقاته الكادحة من فئاته المظلومة، من أحداثه الكبرى، من نيله وريفه، وتراثه الحضارى، وأنه الرجل الذى نقل الأغنية من التخت إلى المسرح، ولم يجعلها احتكارًا لحناجر المطربين بل جعل الشعب كله يسمع ويغنى، كانت الأغانى فردية، فصارت جماعية.

وكان فى جميع تصرفاته، يعمل بإيمان وقدرة، وكم اختلفت معه فى رأى أو فكرة، ولكن منطقه فى تسويغ آرائه وأفكاره، كان يقنعنى دائمًا بأن يوسف حلمى يقول كل ما يعتقده، ويعتقد كل ما يقوله.

* * *

وزاملت يوسف حلمى ونحن فى مرحلة الانتقال إلى الصبا، فى ممارسة هواياتنا الفنية، فألفنا جمعية للأدب والتمثيل وكان بين أعضاء هذه الجمعية أحمد حسين المحامى، ومحمود المليجى الممثل ومحمد نزيه الصحفى، وكان للجمعية أصدقاء كثيرون ممن يقيمون خارج القاهرة ومن بينهم الوزير السابق فتحى رضوان.

وكان يوسف يتميز بالجدية والصلابة والرقة أيضًا، لم يكن يتساهل فيما يؤمن بأنه حق، ويدافع عن إيمانه بالكلمة الصريحة، والابتسامة الحلوة ويستعمل عضلاته عند الاقتضاء، فقد كان قوى البنية شجاعًا، يفيض صحة وشبابًا وحيوية.

وظل كذلك إلى بضع سنوات مضت ثم داهمه المرض الخطير الذى عجز العلم عن أن يجد له دواء إلا الموت،

فحوله إلى شبح، ناحل، أصفر، وظل يقاوم المرض بإرادته، وتشبثه بالحياة، إلى أن مات بلا رئتين، فقد أكلهما السرطان..

* * *

وكنت أعمل مع يوسف حلمى فى جريدة روز اليوسف اليومية، وفى هذه الجريدة تجلت موهبة يوسف الصحفية.. فكان القراء يقبلون على قراءة تعليقاته القصيرة تحت عنوان «همسة» بشغف شديد، وقد شارك فى تبويب الجريدة، وإخراجها، وأعطاها كل طاقته ومواهبه، وتعد هذه الجريدة إحدى الدعامات الكبرى فى تفوق صحافتنا مادة، وأسلوبًا، وإخراجًا.

* * *

وكان يوسف حلمى المحامى، نموذجًا للمثالية فى المحاماة، فهو لا يقبل الترافع فى قضية إلا إذا اقتنع بها، وكم رفض قضايا عرض عليه أصحابها أتعابًا مغرية لأنه بعدما درسها تبين له أنه وهو يترافع عنها، لا يدافع عن حق ولكن يدافع عن ظلم.

زرته فى مكتبه ومعى صديق عرض عليه قضية ليترافع فيها، وأخذ القضية وأراد الصديق أن يخرجه ويدفع له مقدم الأتعاب، فرفض، وقال سنتفق على الأتعاب إذا اقتنعت بالمرافعة فى القضية.

وبعد يومين قال لى صديق إن يوسف حلمى رفض الترافع فى القضية، كان يوسف فى تلك الأيام يعانى أزمة مالية، ولكن أزمته لم تستطع أن تهزم ما قيد به نفسه من مبادئ.

* * *

وقد تزوج يوسف، ولكنه لم ينجب أولادًا، وكان يقدس حياته الزوجية، وكانت زوجته ترى فيه فتى أحلامها، وحبها، وأملها، وقد شاركته فى جميع أزماته وما أكثرها!

وذات أيام كان يوسف يزور بعض أصدقائه فى الريف، وأصيب بنوبة قلبية، وأتى به أصدقاؤه إلى بيته فى القاهرة محمولا على أيديهم، ولم تكد زوجته تراه على هذه الصورة، حتى أصابها إغماء لم تفق منه.. فقد ماتت!

وتحمل يوسف الصدمة بلوعة ولم يتزعزع إيمانه بالله، وظل

إلى آخر لحظة من حياته يبكى شريكة الحياة التى ماتت هلعًا عليه.

* * *

ومنذ سنتين تحول الشاب القوى إلى حطام، فقد عانى من مرض السرطان، وهو لا يدرى، وكان أطباؤه يشفقون من مصارحته بمرضه القاتل، ولكنه عرف الحقيقة، وحاول أن يهزم المرض واستفحل الداء وانتقل من رئة إلى رئة ورغب فى السفر إلى الخارج لعله يجد هناك علاجًا ينقذ به حياته التى وقفها لخدمة وطنه وإنسانيته.

ووفرت له الدولة وسائل السفر والعلاج، وقال لأطبائه هل هناك أمل فى شفائى؟ وهزوا رؤوسهم، فأصر على أن يعود إلى بلاده التى استمد منها الأمل، ليدفن فيها أمله!

وعاد إلى مصر جثة يهمدها المرض وتحركها الكبرياء، وعندما قرأت نبأ نعيه فى الصحف، لم أستطع أن أذهب لأشيع جنازته، فقد كنت مشغولا بتشييع جنازة أخرى هى جنازتى!

ياصديق عمرى إلى أين؟ تمهل.. فمازال فى أفكارك

ومشاعرك ما تحتاج إليه الحياة.

ولكنها حكمة الله إذا لم تستطع رؤوسنا أن تفهمها، فإن رؤوسنا لا تعجز عن الانحناء خشوعًا لها.. فلنحن جميعا رؤوسنا ونخشع!

فى الفن.. تقليد!

يبدو أن الحديث عن الشعر التقليدى، والشعر الجديد، لا يريد أن ينتهى، فما زلنا نجد كثيرًا من الذين يهتمون بالحركة الفكرية يصرون على إسباغ ميزة التجديد على بعض من ينظمون الكلمة بشكل خاص، وإطلاق صفة التقليد على من ينظمون الكلمة بشكل آخر والشعر فن..

وليس فى الفن تقليد، فالفن جديد دائمًا، وقد تعيش لوحة أو قصيدة، أو معزوفة موسيقية مرت عليها آلاف الأعوام، فى حين ماتت الأعمال التى حاول أصحابها أن يبتكروا لها قوالب، وخطوطًا. ومناهج حديثة.. ولماذا؟ هل الفن ينفر من الجديد؟ كلا ولكن الذى يحدث هو أن الداعين إلى تجديد الأساليب ليسوا فنانين، وإنما هم علماء فى

الفن. ويغريهم علمهم بأن يتولوا التجربة الجديدة بأنفسهم. فيخفقوا، تخفق التجربة معهم. فالفن ليس علمًا. ولكنه موهبة يمتد منها العلم. وكل المحاولات الناجحة فى مختلف الفنون، فرضت وجودها لأن وراءها فنانًا. أما غير الناجحة فهى المحاولات التى قام بها علماء تعوزهم الموهبة الفنية الأصيلة.

والعملة الفنية إما أن تكون سهلة فنتداولها، أو صعبة فنشق فى الحصول عليها. أما إذا كانت عملة لا يتداولها أحد بسهولة، أو صعوبة، فهى ليست فنًّا.. وإن ارتفعت مئات الأصوات مؤكدة أنها عملة جديدة. فمقياس صحة العملة أن نشترى بها شيئًا.. فما الذى نشتريه بالفن الصادق؟.. إننا نشترى الانفعال، ورعشة المشاعر، وإغراق الذهن فى التأملات. فكل ما لا يثير انفعالنا.. وتأملاتنا، ويهزنا من أعماقنا، ليس بفن. قد يكون علمًا، مذهبًا فلسفيًّا، معادلة رياضية.. ولا عيب أن يكون كذلك، وإنما العيب أن يصر صاحب النظرية العلمية على أن يسمى نظريته قصيدة، أو تمثالا، أو لحنًا موسيقيًّا.

إن الفن فعل، وصوت، ولابد لكى نوقن بالفعل من أن

يكون له واقع.. ولا بد لكى نوقن بالصوت من أن يكون له صدى.

والأشكال والأساليب الفنية لا يمكن أن تخضع للقواعد والمناهج، وإنما هى تنبع من ذات الفنان، فتعبر عن شخصيته.

والعمل الفنى لا يعيش إذا لم تكن له شخصية تميزه عن الأعمال الفنية الأخرى وإن تقارب معها فى اللون والنسق.

ولا ينبغى أن نقف فى وجه المحاولات للتجديد فى الأشكال الفنية جميعًا. وعندما يوجد الفنان الذى يرسم هذه الأشكال فإنه سيفرض وجوده بأعماله الفنية، وليس بالمذكرات التفسيرية التى يشرح بها هذه الأعمال!

الكاريكاتير... علمنى!

عرفت الكاريكاتير وأنا طفل صغير. عرفته فى مجلة اللطائف المصورة، وكانت على ما أظن المجلة المصرية الوحيدة التى تنشر الصور والرسوم الرمزية فى ذلك الحين. وكانت تنشر

فكاهات أيضًا.. وقد استطعت أن أفهم الصور ولكنى لم أستطع أن أفهم الرسوم ولا أن أضحك من الفكاهات!

فهذه الرسوم، أو الصور الكاريكاتيرية كانت شيئًا بعيدًا جدًّا عن فن الكاريكاتير. كانت أشبه بالوشم الذى يحفره الغجر فى جباه الفلاحين وأذرعهم ليجلب لهم الحظ وطول العمر... وهو يرمز إلى صور للحمام والعصافير والسمك... وقد رأيت إجراءات الوشم بعينى.. كانت الغجرية ترسم الحمامة مثلا بالفحم فوق الصدغ أو الذراع ثم تضع فى النار مسمارًا وبعد أن يصبح المسمار قطعة من النار تغرزه فى خطوط الحمامة التى رسمتها بالفحم، وتحفر الخطوط بالمسمار، ثم تغطى الحفر بسائل أخظر، أو أزرق أو سائل فى لون الكوبيا!

كان كاريكاتير مجلة اللطائف المصورة مشوهًا مثل هذا الوشم، وكلما رأيته أحسست أن مسمار الغجرية المحمى فى النار ينغرس فى صدغى وذراعى!

وكانت المجلة تنشر صورها الكاريكاتيرية داخل إطار. وتضع فى الإطار كلمات تشير إلى محتويات الصورة بالتفصيل. فتكتب فى رسم الطربوش كلمة «طربوش»! وفى رسم الطرطور كلمة «طرطور»...

وتحت الإطار عبارات تشرح ما فى الصورة من فن... ونكتة... ولا فن فى الصورة، ولا نكتة بطبيعة الحال.. وتستهل الشرح بكلمة اعتذار للشخص موضوع الكاريكاتير... وتؤكد أنها لا تقصد برسمه أن تهينه، أو تحقره، أو تثير حوله الغبار.. وإنما هى مجرد دعابة بريئة!

كاريكاتور علمنى!

وذات يوم وقع فى يدى، لأول مرة، نسخة من مجلة الكشكول، وكان فيها صورة كاريكاتيرية على عرض صفحتين كاملتين، وكانت الصورة تمثل سعد زغلول زعيم الأمة ورئيس الوزارة وحوله الوزراء فى هيئة «زفة».. وقد ارتدى نسيم باشا السروال الإسكندرانى وأخذ يرقص البلدى هو والوزراء جميعًا يتقدمهم سعد زغلول... وفى يد كل منهم آلة من آلات الموسيقى... فهذا يحمل الرق، وهذا يحمل النقرزان، وهذا يحمل العود، وهذا يرفع بفمه دكة فى الهواء، وهذا يضع على صدره القانون أو البيانو... وهذا يتمنطق بطبلة كبيرة، وهذا ينفخ فى مزماره... وهى صورة ناطقة معبرة تكاد تسمع فيها،

رنين الآلات، وصوت المزمار، ودق الطبول!

وكان الزعماء والحكام فى نظر الناس آلهة مرهوبة.. كنا نتصورهم فى قمم لا تصل إليها أنفاس العباد. إلا بالهتاف والدعاء والتسبيح.. ولا تصغى إليها آذان البشر إلا لتتلقى الأوامر والنواهى.

وكانت صورهم تبعث الخشية والفزع.. وكانت مواكبهم تثير الخوف والتوقير..

وقد علمنى هذا الكاريكاتير أن الزعماء والحكام ناس عاديون يجوز عليهم ما يجوز على سائر الناس من نقد، وتهكم وسخرية، وأنهم لا يثيرون الحب والكراهية ليس إلا وإنما هم أيضا يثيرون الابتسام والضحك والقهقهة!

وبرغم أنى كنت أحب سعد زغلول وأتحمس له فقد أعجبت بالكاريكاتير الذى نال من هيبته، وشعرت بأنه فتح منافذ عقلى وجعل لى إدراكًا ووعيًا..

وقد عرفت فيما بعد أن هذا الكاريكاتير بريشة «سانتيس» وهو فنان إسبانى اسمه «جان سانتيس» أقام فى مصر فترة طويلة.. واتفق مع جريدة الكشكول على أن يخصها وحدها

برسومه. وكانت الكشكول لسان حال المعارضين لسعد زغلول.

وتمنيت أن أرى «سانتيس» ولكن هذه الأمنية لم تتحقق، فقد مات سانتيس من أعوام قليلة مضت، دون أن أراه.

البقال الرومى

ومنذ مدة ذهبت إلى مجلة «روز اليوسف» لزيارة الأستاذ التابعى، وكنت أحمل له رسالة من شخص تربطه بى وبه صلة القرابة، ووجدت عنده بقالا روميًّا.. وكان البقال يجلس أمام التابعى، وقد وضع كلتا يديه فوق زجاج المكتب، وكنا فى أول الشهر فظننته جاء ليأخذ حساب الشهر أو يطالب بحساب الشهر.. وعندما رآنى رمقنى بنظرة ساخرة وتراجع بكرسيه إلى الوراء، وأطبق شفتيه على ابتسامة أو كلمة لا أدرى!

ولما انتهت مقابلتى للتابعى، زحف البقال بكرسيه إلى المكتب استعدادًا لمراجعة الحساب مع التابعى!

ودارت الأيام، واشتغلت فى مجلة روز اليوسف. وكنت

أرى هذا البقال داخلا من غرفة، وخارجًا من غرفة، وفى خطواته نشاط وضجيج. وكان دائمًا عارى الساعدين متجهم الوجه، رأسه أصلع ليس فيه شعر وملامحه أيضًا صلعاء.. ليس فيها نبض ولا تعبير.. عيناه مفتوحتان، وفمه مغلق، وأذنه مرهفة.. إذا ضحك قهقه ثم زم شفتيه بسرعة كأنما تذكر شيئًا يمنعه من أن يضحك!

والتقيت بهذا البقال بعد ذلك فى «آخر ساعة» ثم فى دار «أخبار اليوم»! وتعاملت معه أنا وسائر القراء.. كنا نأخذ منه أجمل أصناف الضحك والسخرية والتهكم... نأخذ منه هذا الكاريكاتير النابض بالحركة.. حتى ليخيل إليك أن الصور تقفز وتثب. وتطير فى الهواء! هذا الذى حسبته بقالا عندما رأيته أول مرة.. لم يكن إلا الفنان «صاروخان»!

وقد جاء مصر من سنوات طويلة. ولم يتركها يومًا واحدًا. وعثر عليه التابعى، ودفع به إلى طريق الكاريكاتير فمشى فيه بخطوات عملاق. وقد ظل طيلة هذه السنوات يقدم صور ساستنا وحكامنا. ويختار لهم الملامح والقسمات التى تعبر عن فكرة الكاريكاتير، إن ريشة صاروخان لم تضع ملامح

ساستنا وحدهم بل وضعت كثيرًا من ملامح السياسة المصرية نفسها زهاء ثلاثين عامًا!

وقد حاول صاروخان طيلة هذه السنوات أن يظفر بالجنسية المصرية، فكانت العقبات توضع فى طريقه.. ولم يجرؤ أحد على منحه الجنسية المصرية.. فقد كان متهمًا بأنه عدو السراى، وعدو الإنجليز، وعدو الوفد، وعدو خصوم الوفد... ثم اتهم بأنه ضالع مع الشيوعيين!

وأخيرًا، وفى عهد الثورة استطاع صاروخان أو الكسندر صاروخان الشاب الأرمنى أن يظفر بالجنسية المصرية. بعدما أصبح شيخًا فى الستين من عمره!

ابن البلد...

وفى عام ١٩٣٣ كنا جماعة من الشبان نكره صدقى (باشا) ونتحمس للوفد بكل ما فينا من تعصب واندفاع. وكان صدقى (باشا) رئيسًا للوزارة وقد استعمل فى حكمه كل أساليب الضغط والتنكيل وصب غضبه على الصحافة فكان يغلق عشرات الصحف بجرة قلم. ويسوق أصحابها ومحرريها إلى

السجون بتهمة العيب فى الذات الملكية.. وكان مجرد توجيه هذه التهمة إلى شخص كفيلا بسجنه على الأقل رهن التحقيق !

وأصدر أحد الشبان الوفديين مجلة تنطق بلسان الشباب الوفدى. وكانت المجلة تحاول تقليد روز اليوسف فى أسلوبها الساخر.. وكان ينقصها أن تقلد صاروخان !

وفى أحد الأيام جاء صاحب امتياز المجلة إلى النسادى السعدى وهو يتهلل فرحًا ومعه بضعة رسومات، وعرضها على الموجودين، فأعجبوا بها وأجمعوا على أنها مثل صور صاروخان... وقال صاحب الامتياز إن هذه الصور لشاب يقلد صاروخان أحسن تقليد... وعرفنا أن اسمه المختصر «رخا» واسمه الكامل محمد عبد المنعم رخا. وقال إن رخا شخص موهوب لم يضع وقته فى تكملة الدراسة، واشتغل بالرسم الكاريكاتيرى وظهرت صور رخا. وأعجب بها القراء. وكان هدف رخا محاكاة صاروخان فهو ينقل الملامح كما يرسمها صاروخان، ويترسم حركة يده فى الرسم والتعبير.

ورسم رخا صورة لصدقى باشا، وكتب فيها بحروف دقيقة

عبارات تناولت الملك فؤاد وثار الملك فؤاد، وقدم رخا إلى المحاكمة ودخل السجن، وأمضى فيه أربع سنوات.. وكنا مشفقين عليه من أن ينسيه السجن موهبته فى الرسم...

وخرج رخا من السجن... وإذا به ينسى فعلا موهبته فى تقليد صاروخان! وإذا السجن الذى أنساه تقليد غيره يذكره بنفسه فيهديه إلى موهبته الأصلية الكامنة فيه، موهبة الفنان الخالق المبتكر... وخرج إلى الشارع فلقى ابن البلد... وبنت البلد.. وعاش فيهما، وعاشا فيه.. فصور بنت البلد بالبرقع والملاية اللف، والجمال الذى يريد أن يقول نعم، ولا يستطيع أن يقول غير «لا»! وصور ابن البلد بجلبابه البسيط النظيف وذكائه الفطرى، وكفاحه، ونبضات قلبه، وخلجات نفسه.. بل استطاع أن يصور نبرة صوته... هذا الصوت المبحوح من طول ما صلح. وشكا، وهتف!

لقد سجن رخا فى يوم ٦ يونية من عام ١٩٣٢. وهو يوم ميلاده فى الحياة. كما تثبته شهادة الميلاد... وكان أيضًا يوم ميلاده، كفنان... فمنذ هذا اليوم صارت لرخا شخصيته الفنية الطاغية...